نيقولا مالبرانش (1715–1638)

نيكولا مالبرانش فيلسوف فرنسي بارز من فلاسفة القرن السابع عشر، سعى إلى التوفيق بين الإيمان المسيحي والعقل الفلسفي الذي أسّسه ديكارت تأثر في فكره بديكارت من جهة، وبالقديس أوغسطين من جهة أخرى، فجمع بين النزعة العقلانية والنزعة اللاهوتية في رؤية فلسفية متكاملة.

يرى مالبرانش أن الإنسان لا يعرف الأشياء في ذاتها، بل يعرفها في الله، لأن الله هو الذي يحتوي على جميع الأفكار الكلية والحقائق الأزلية .فالمعرفة ليست إحساسًا ناتجًا عن التجربة، بل هي إشراق عقلي مصدره الله نفسه الذي يهب الإنسان نور العقل .وبذلك تصبح الحواس مصدرًا للخطأ والوهم، في حين أن الحقيقة تُدرك فقط بفضل العقل المتصل بالله أما عن تفسيره للعلاقات السببية في الكون، فقد رفض مالبرانش فكرة العلية الطبيعية التي تقول إن الأشياء تؤثر في بعضها بعضًا تأثيرًا مباشرًا، واعتبر أن الله وحده هو الفاعل الحقيقي في كل ما يحدث، بينما الظواهر الطبيعية ليست إلا مناسبات يتجلى فيها فعله الإلهي، وهو ما يسمى بنظرية التناسبية.

ويعتقد مالبرانش أن الله هو الوجود الحقيقي المطلق، وكل الكائنات الأخرى تعتمد عليه في وجودها . ومن هنا، تصبح معرفة الإنسان وسيلة للاتحاد بالله، إذ لا تتحقق السعادة أو الكمال الإنساني إلا بمحبة الله والتعلق به باعتباره الحقيقة المطلقة والنور الذي يضيء العقل.

لقد مثّلت فلسفة مالبرانش محاولة جريئة لدمج الميتافيزيقا بالعقيدة، حيث بقي ديكارتيًا في منهجه، أوغسطينيًا في روحه، يسعى إلى تأسيس معرفة عقلانية قادرة على خدمة الإيمان وإعلاء شأن الله في الفكر والوجود.

1_ إنتاجه الفكري والفلسفي:

قدم مالبرانش مجلدين من أعماله الفلسفية الأولى والأكثر شمولا في عامي 1674–1675، بعنوان **البحث عن الحقيقة**. عالج فيه طبيعة العقل البشري وكيفية استخدامه لتجنب الخطأ في العلوم، ووضع الكتاب الأساس لسمعة مالبرانش وأفكاره الفلسفية. تناول الكتاب أسباب الخطأ البشري وكيفية تجنب مثل هذه الأخطاء الأهم من ذلك ناقش في كتابه الثالث الإيضاحات، الذي دافع فيه عن الادعاء بأن الأفكار التي نتصور من خلالها الأشياء موجودة في الله. هاجم الأب سيمون فوشير البحث عن الحقيقية حتى قبل نشر المجلد الثاني، وكان الناقد الأول لمالبرانش، أجاب مالبرانش في مقدمة قصيرة أضيفت إلى المجلد

الثاني، في الإصدار الثالث عام 1678، أضاف تسلسلا من سبعة عشر توضيحا في نهاية الكتاب كان رد الفعل على هذه التوضيحات مزيدا من الانتقادات، لكنهم وسعوا أيضا الحجج الأصلية وطوروها بطرق جديدة على سبيل المثال: في التوضيح العاشر قدم مالبرانش نظريته عن «التمديد الواضح»، وهي فكرة واحدة متعلقة بالنموذج الأصلي للتمديد والتي يمكن من خلالها حل الأفكار لأنواع معينة من الأجسام بشكل مشترك في حالات أخرى، ركز مالبرانش على العلاقة السببية، ولا سيما زعمه أن الله يتصرف في معظم الأحيان من خلال «إرادة عامة» ونادرا ما يتصرف، كحالة المعجزات، من خلال إرادة خاصة.

توسع مالبرانش في هذه النقطة الأخيرة عام 1680 عندما نشر كتاب **الطبيعة والنعمة** أوضح هنا أن عمومية القوانين التي ينظم بها الله سلوكه لا تقتصر على نشاطه في العالم الطبيعي فحسب، بل تنطبق أيضًا على نعمته على البشر هوجم الكتاب من قبل زميله الفيلسوف الديكارتي، أنطوان أرنولد، وعلى الرغم من أن اهتمامات أرنولد الأولية كانت لاهوتية، إلا أن النزاع المرير الذي نشأ تفرع بسرعة كبيرة إلى معظم المجالات الأخرى في أنظمتهم الخاصة على مدى السنوات القليلة التالية، كتب الرجلان ما يكفي من الجدال ضد بعضهما البعض لملء وجمع أربعة مجلدات من أعمال مالبرانش وثلاثة من أعمال أرنولد. تمكن مؤيدو أرنولد من إقناع الكنيسة الكاثوليكية الرومانية بوضع الطبيعة والنعمة في دليل الكتب المحرمة في عام 1690، وتلاه **البحث عن الحقيقة** بعد تسعة عشر عاما ومن المفارقات أن الدليل يحتوي بالفعل على العديد من الأعمال من قبل الينسيني أرنولد نفسه، ومن بين النقاد الآخرين الذين دخل معهم مالبرانش في نقاش مهم زميل ديكارتي آخر، بيير سيلفان ريجيس وكذلك دورتوس دي ميران. تعاطف دي ميران مع آراء باروخ سبينوزا، وشعر أنه وجد آراء مماثلة في قراءته لمالبرانش: قاوم مالبرانش باجتهاد هذه الجمعية.

2_ اتجاهه الفكري:

الاتجاه الفكري لمالبرانش، وهو فيلسوف فرنسي متأثر بالديكارتية، هو العقلانية الممزوجة باللاهوت، حيث يرى أن الله هو أصل كل الأفكار وأننا ندرك العالم من خلال الأفكار الإلهية الموجودة فينا. وهو يركز حيث يرى أن الله هو المسبب الأول لكل شيء وينظم العالم بقوانين "**وحدة الإرادة الإلهية**"على مفهوم ثابتة وعامة، وليس من خلال تدخلات جزئية أو "علل ظرفية".

أهم خصائص اتجاهه الفكري:

_ وحدة الوجود الإلهي :

يرى مالبرانش أن الوجود يتحقق بالإيمان بالله، وأن الله هو المصدر الأول لكل شيء وفكر وكل إدراك.

_ نظريّة الأفكار الإلهيّة (أو الرؤية في الله):

يعتقد مالبرانش أننا نرى جميع الأشياء "في الله"، بمعنى أن الله يضع الأفكار في عقولنا، مما يعني أن معرفتنا بالعالم الخارجي تأتي عبر الأفكار الإلهية.

_ السببية الإلهية :

يؤكد على أن الله هو خالق القوانين الكونية وهو السبب الوحيد لكل شيء يحدث في العالم، سواء في الأفكار أو في الحركات المادية.

_ التناسبية:

اقترح هذه النظرية كبديل لتفاعل العقل والجسم الديكارتي، حيث يرى أن الله هو من ينظم العلاقة بين الأفكار الإلهية والأحاسيس، لا تفاعل مباشر بين النفس والجسد.

_ رفض السببية البشرية :

يرفض مالبرانش فكرة أن العقل البشري أو الجسد البشري لهما قدرة مستقلة على الفعل، ويؤكد أن كل شيء هو فعل إلهي مطلق.

_ الروحانية والتمييز بين الميتافيزيقا والدين :

يرى أن هناك مجالا للعلم ومجالا للدين، وأن توهم الاشتراك بين المجالين قد يكون خطيرا، إلا أنه يؤمن بأن الدين يوفر أساسًا للإيمان بالله الذي هو مصدر المعرفة.

3_ فلسفته:

مالبرانش في مذهب وحدة الوجود

يذهب مالبرانش ان الوجود لا يتحقق في تجارب القوانين الفيزيائية المشكوك بها بل الوجود يتحقق بالايمان بالله مالبرانش عن علم مسبق اقتباسي او توارد خواطر فلسفية فهو يكرر ما كان ذهب له سورين كيركجورد انه في تعطيل الاستدلال العقلي والغاء السببية والعليّة التي قال بها ديفيد هيوم نصل الى حقيقة

التسليم ان تحقيق الوجود الايماني انما يتم بقفزة ايمانية في المطلق الالهي الغيبي يقررها القلب وليس العقل.

التساؤل إذا اعتبرنا القوانين الفيزيائية العامة التي تحكم الطبيعة هي قوانين موجودة في الله جزءا فيه!! كما يذهب له مالبرانش فهل نستطيع بدلالة القوانين العامة للطبيعة الموجودة بالله تأكيد وحدة الوجود ما بين قوانين الطبيعة الفيزيائية العامة وبين الذات الالهية كما تفعل المذاهب الصوفية؟ الاجابة عن التساؤل التالي من المحال لسببين:

- الله وجود مفهومي ميتافيزيقي غيبي غير مدرك ولا محدود بصفات ولا جوهر. والحلول الصوفي بالذات الالهية امر مشكوك به من الالف الى الياء.
- القوانين الفيزيائية الطبيعية يمكن التحكم بها ماديا ولكن لا يمكنها المجانسة النوعية باي شكل او تدخل في علاقة مع الخالق الذي كما ذكرنا مفهوم ميتافيزيقي مصدره الايمان القلبي وليس العقل.

من الصعب جدا التسليم غير المشكوك به ان القوانين الطبيعية العامة والله جوهر واحد في ماهية نوعية واحدة المجانسة من حيث اننا نستطيع إدراك القوانين الطبيعية العامة بعلاقتها التحكم بالطبيعة بالعقل وليس بعلاقة الاستدلال الايماني القلبي الميتافيزيقي بالله هذا إذا جاز لنا فصل القوانين الطبيعية الفيزيائية عن الوجود والانسان فصلا كاملا. والا دخلنا في نمط من الاعتباط الشيئي الخاطئ جدا حين نذهب ان ماهية الانسان او جوهره موجود بالله كما هي حال القوانين الطبيعة الفيزيائية انها جزء موجود في الخالق قبل ارادة الله خلق وجودها الوظائفي في التحكم الثابت بالطبيعة وتمنحها تماسك موجوداتها الذي يجعلها اي الطبيعة غير مفككة بانقسامات موجوداتها الموحدة استقلاليا احتوائيا داخل الطبيعة غير المتناثرة اعتباطيا. موجودات الطبيعة المستقلة داخل علاقاتها مع الطبيعة التي تحتويها وداخل العلاقات البينية فيما بينها ايضا محكومة الوجود داخل احتواء الطبيعة لها، طبعا هنا علينا التفريق ان الطبيعة وجود مستقل كوكب متماسك بقوانين فيزيائية عامة ثابتة تحكمها رغم العلاقات البينية بين موجوداتها التي تحتويها الطبيعة باستقلالية عنها داخل احتوائها لها فقط. الا ان تلك الموجودات المستقلة داخل الطبيعة الاحتوائية لها متناثرة الوجودية كما ولا يجمعها التجانس النوعي مع بعضها البعض فالجمادات غيرها النباتات وكلاهما غير الحيوان. رغم التعايش المتبادل بينها وبين الانسان معا.

استقلالية الموجودات داخل الطبيعة لا يمنحها الخروج والانفلات عن كوكب الارض المحكوم بقانون الجاذبية والا لما كنا وجدنا كوكبا نعيش فيه مستقلا بنفسه يسمى الارض وموجودات الطبيعة المستقلة في الطبيعة هي موضوعات الادراك الحسي والعقلي عند الانسان فالانسان موجود جزئي من الطبيعة متمايز

ومنفصل عنها وهو يعي علاقة وجوده الارتباطية النسبية بالطبيعة. بخلاف الطبيعة غير العاقلة. الانسان يؤنسن بوجوده جزءا من الطبيعة لكن لا تقدر الطبيعة طبعنة الانسان في علاقتهما المتبادلة سواء بالمنفعة التي تؤديها الطبيعة للإنسان او بعلاقة التكيّف الالزامي المفروض على الانسان.

فالانسان يقود الطبيعة في نفس وقت الاعتياد عليها متمايزا بالعقل عنها منفصلا بالتبعية والانقياد لها ليس كما هي علاقة الحيوان الانقيادية للطبيعة. الانسان لا ينقاد للطبيعة بل يتكّيف انتفاعيا منها. تكيّف الحيوان مع الطبيعة لا يحكمه تفكير العقل كما هو تكيّف الانسان العقلاني معها. بخلاف الطبيعة التي لا تمتلك وعيا ادراكيا بعلاقتها مع الانسان وباقي موجوداتها من كائنات حيوان ونبات وجماد والعلاقات البينية بينهم.

هل من المتاح لنا ان نعتبر القوانين الطبيعية الثابتة التي تحكمنا ككائنات حيّة وكائنات اخرى غير حيّة هي جزء من الطبيعة منفصلين وجودا عنها متكاملين معرفيا متعايشين معها القوانين الفيزيائية الطبيعية العامة هي معجزات لا دينية بمقدار ما هي معجزات علمية فيزيائية بمعنى ليس في خرقها من قبل الأنبياء والرسل نتوصل الى الايمان الديني لاهوتيا. فخرق القوانين الطبيعية العامة هو خرق لقوانين فيزيائية تحكم الطبيعة ولا تحكم الدين.

لو نحن اخذنا المنهج الصوفي في تحليل هذه العلاقة بين معجزات القوانين الطبيعية فيزيائيا وليس لاهوتيا في الوصول الى الايمان الديني التوحيدي لوجدنا أنفسنا نسقط في امكانية (استثماراتنا) العلمية لتلك القوانين التي تقودنا الوصول الى تشييء الوجود الالهي ماديا غير الغيبي الايماني وهو محال. تشييء الخالق او احدى صفاته هو تعجيز عقلي بمعنى تعطيل العقل عن التفكير بأبعد مما يدركه ماديا.

_ سبينوزا والايمان:

سبينوزا في بحثنا العلاقة رباعية الابعاد ذات الاضلاع الاربعة الانسان، الطبيعة، والذات الإلهية، وقوانين فيزياء الطبيعة، في تعالقاتها البينية عبّر عنها سبينوزا اننا بدلالة الجوهر ندرك الوجود على خلاف الماركسية والوجودية اللتان تغلبّان الوجود على الفكر والجوهر، رغم ما يحيط هذا التعبير من مقاطعة تتشبث بالمثالية بالضد من المادية.

الجوهر ماهيّة لوجود مادي سابق عليه وبدلالة الوجود المادي نحاول إدراك الجواهر بالأشياء والموجودات التي ليست جميعها تمتلك جوهرا. فتوجد كائنات حيوانية ونباتية لا جوهر ولا ماهيّة لها بل صفاتها الخارجية هي جوهرها باستثناء الانسان الذي يمتلك الصفات الخارجية المتفردة نوعيا عن غيرها في

صفات الافراد الاخرين ويمتلك قدرة تصنيع ماهيته او جوهره الخاص به، أي يصنع هويته الانفرادية الماهوية المميزة عن الهويات الماهوية في النوع من جنسه.

وذهب سبينوزا أكثر من قوله بدلالة الجوهر ندرك الوجود في استجلابه المرجعية الايمانية الغيبية خارج المعجزات المنسوبة للإيمان التي هي معجزات القوانين الفيزيائية العامة التي يكتشف الانسان اعجاز الطبيعة فيها وليس اعجاز الايمان الديني فيها لذا نجد سبينوزا أبطلها لأنها منافية للعقل وليست منافية للإيمان الديني ونجد سبينوزا ذهب اننا بدلالة الجوهر الالهي الكلي المطلق الازلي الله ندرك الوجود وندرك الطبيعة في مجمل كائناتها كما وندرك الجواهر الموزعة في موجودات الطبيعة.

اول الامور التي يتوجب نشير لها ان سبينوزا اعتبر الخالق الالهي جوهرا موزعا في الطبيعة على شكل جواهر لانهائية موزعة متناثرة بكل شيء يدركه العقل وليس على اشكال من الموجودات تتوزعها الطبيعة والكون كما هو الحال الذي يسير تفكير العقل.

كما وليس الخالق موجودا متعيّنا يمكن ادراكه ماديا بصفات خارجية وجوهر وهذه مسألة التناسبية يقف العقل الانساني المحدود الاجابة الحاسمة عنها من حيث تلغي الوجود الالهي على اي شكل كان متصورا ماديا او لا متصور خياليا.

سبينوزا اعتمد الطبيعة مرتكزا اساسيا في جعلها الام التي انجبت تفكير الانسان بصنع إلهه وهو ما ذهب له نصا فيورباخ في وحدة وجود صوفية لا دينية مادية تأمليه مصدرها علاقة الانسان بالطبيعة كانت هي أصل الدين.

سبينوزا حين جعل الخالق جوهرا كليّا لا يمكن ادراكه موزعا على جميع الاشياء والمدركات في مذهب وحدة الوجود الصوفية يكون بذلك أعفى مهمة العقل التفتيش عن اثبات وجود الخالق حتى على مستوى المعجزات التي ينسب لها صفة الايمان الديني وهي في حقيقتها معجزات ذات طبيعية فيزيائية قابلة للإدراك العقلي وليست معجزات غيبية جيّرها اللاهوت لحسابه دينيا وأنكرها سبينوزا على انها قوانين فيزيائية تخص الطبيعة فقط وليس اللاهوت فأتهم بالزندقة واباح الكنيست اليهودي اهدار دمه.

_ مالبرانش والاعتباطية بالخلق:

يذهب مالبرانش والعهدة على جان فال الى ان العالم المادي بوصفه من خلق ارادة الله الاعتباطية وهذا التعبير من أكثر الجوانب دهشة في تعبير مالبرانش الفيلسوف القسيس فإن العالم المادي لم يكن ليوجد الا

لان الله طاب له ان يخلقه ونحن لا نعرف هذا العالم الا عن طريق الوحي ولا يمكننا البرهان الحقيقي للعالم المادي الا في الكتاب المقدس، ولا شيء سوى الايمان يكشف لنا عن وجود الاجسام بحق.

يعقب جان فال على ما سبق لمالبرانش قائلا: " اننا نستنتج من كلام مالبرانش وجود نوعين من العلوم، علوم تبحث في العلاقات القائمة بين الافكار المجردة، وعلوم اخرى تبحث في العلاقات القائمة بين الاشياء (بتوسط افكارها).

لو نحن اخذنا العلوم القائمة بين الاشياء بتوسط افكارها لوجدنا أنفسنا امام حقيقة عدم وجود علم يقوم على افكار نظرية مجردة عن التجربة والتطبيق. فالعلوم الطبيعية قاطبة تقوم على فكرة نظرية وتجربة برهان العلوم تختلف بالاختصاصات لكنها لا تختلف بثوابت المنهج العلمي. الافكار المجردة التي تبحث نظريا في منحى علمي لا تخلق علما بلا تجربة وتطبيق اختباري.

سمة الفكر التجريد وسمة العلم التجربة والتطبيق أفضل مثل يمكننا الاستشهاد به فلسفيا وليس علميا هو نموذج الفلسفة البراغماتية الامريكية او الذرائعية التي تذهب الى ان صواب وصحة قبول اية افكار نظرية يتوقف على مدى نجاحها عبور التجريبية في تحقيقها المنفعة. والافكار النسقية المنضبطة منطقيا عقليا غير كافية لان تكون علما او نظرية صائبة. هذا على صعيد الفلسفة فما بالك لو طبقنا هذا المعيار على العلوم؟

_ مالبرانش والدوغمائية الايمانية:

يذهب التطرف الايماني اللاهوتي لدى مالبرانش ابعد الحدود قوله مثلا: العلوم الطبيعية هذه المرة وليست القوانين الفيزيائية العامة تعتمد حسب مالبرانش في كثير من الاحيان على تجارب وظواهر مشكوك بها الى حد ما. ويصفها مالبرانش انها أعظم قيمة بالنسبة لنا من العلوم الرياضية، هذه العلوم خاضعة للنظام الموجود في الله.

على ماذا اعتمد مالبرانش في استدلاله ان نظام الرياضيات وباقي العلوم الطبيعية خاضعة ومستمدة من النظام الموجود في الله. نظام الرياضيات مخلوق بشريا وهو نظام ازلي ثابت لا يمكن تغييره ولا التلاعب بثوابته (المعادلات والرموز) فانت حين تتعامل اليوم مع معادلة حسابية بسيطة مثل 2+3=5 فهذه الحقيقة الرياضية لا تحتاج البرهنة المتكررة عليها بعد ان اصبحت حقيقة بديهية ثابتة اليوم وبعد الاف من السنين. بخلاف ثوابت العلوم الطبيعية فهي نسبية قابلة للدحض والتغيير والاضافة والتبديل احيانا.

النظام الذي نجده ليس في قوانين الطبيعة والعلوم وفي بيولوجيا وظائف جسم الانسان ولا في غيرها من ظواهر فيزيائية وكيماوية وفي مختلف مناحي الحياة التي تعتمد منطق ثوابت علم الرياضيات والهندسة والجبر لا يمكن القطع بأن نظامها الدقيق مستمد من النظام الموجود في الله.

نحن حين نقول سواء بمنطق علمي أو بمعنى إيمان غيبي بان العالم مخلوق بإعجاز منظم تعجز عقولنا الالمام التام به ما يعني ان نظامه الاعجازي مستمد من الله. وباستثنائنا القوانين الطبيعية العامة الثابتة التي لا علاقة للإنسان بوجودها بل باكتشافها فقط وليس اختراعها أيضا. فان الاعجاز الموجود في العلوم الطبيعية المصنعة مختبريا انما هي اختراع بشري لا علاقة له بالايمان الديني.